الاشوريون والبابليون

بلاد الكلدان

وصفها — ينبجس من قمم جبال أرمينية المغطاة بالثلوج نهران سريع جريهما بعيد غورهما وهما الرافدان دجلة والفرات الاول من الشرق والثاني من الغرب . يتقاربان أولا ثم يتباعدان عند بلوغهما السهل فيستقيم دجلة في جريته وينعطف الفرات في صحاري الرمال ثم يجتمع النهران قبل أن يصلا الى البحر . فالبلاد التي يجتازها هذان النهران هي بلاد الكلدان . وهي بسبب من صلصال تمطره السماء قليلا وتشتد فيه الحرارة والقيظ بيد أن الانهار تسقي بجداولها هذه الارض الصلصالية فتصيرها من أخصب بقاع الارض وانبت قيعانها . وان حبة القمح والشعير لتأتي مئتين وفي أعوام الرخاء ثلثمائة . والنخيل في تلك البلاد غابات غياء يستخرج منه الخمر والعسل والطحين

الامة الكلدانية — باكرت الحضارة بلاد الكلدان في العهد الذي باكرت فيه مصر فسكنتها شعوب متمدنة . وقد هاجر اليها عدد من الاجناس من أصقاع كثيرة فاجتمعوا وامتزجوا في هذه السهول الفسيحة الارجاء . جاءها من الشمال الشرقي ناس من التورانيين أهل اللون الاصفر وهم يشبهون الصينيين وأتاها من الشرق طائفة من الكوشيين ولونهم أسمر قاتم وهم أنسباء المصريين ونزل اليها من الشمال فئة من الساميين وألوانهم صافية وهم أقرباء العرب فتألف الشعب الكلداني من هذا المزيج

مدنها — زعم كهنة الكلدان ان ملوكهم تبسطوا في مناحي السلطة منذ مائة وخمسين الف عام وهو زعم خرافي يعذرون عليه لان الحامل لهم عليه توهم مملكة الكلدانيين في القدم . هذه الارض تخللها هضاب وآكام

كلها كومة أنقاض من بقايا بلد عفته طوارق الدهر. وقد فتح كثير منها واخرجت منه عدة دفائن مثل « أور » و « لارسام » و « بال ايلو » وظفر الباحثون بعدة آثار. وما برح أمر هذه الشعوب مستوراً عن الانظار مجهولة حقيقتهم على أرباب الافكار على انه من المأمول أن يظفروا بكتابات جديدة في الاماكن الكثيرة التي لم تتناولها الايدي بالحفر واستخراج الدفائن. وبعد فقد دعت هذه الامم نفسها بالسوميريين والاكاديين وانقرض ملكهم حوالى سنة ٢٣٠٠ قبل المسيح وربما كانت اذ ذاك في إبان قدمها فيرد عهدها اذاً الى ثلاثين قرناً قبل الميلاد على الاقل

الاشوريون

أشور — هذه البلاد واقعة وراء بلاد الكلدان على شاطيء دجلة وهي مخصبة التربة قائمة على تلعات كثيرة فيها وأحادير . تخترقها هضاب وتتخللها صخور . تثلج فيها السماء في الشتاء لقربها من الجبال وتهب عليها الاعاصير في الصيف

أصولهم — زخر بحر العمران في بلاد الكلدان فكان فيها امصار عاش فيها الاشوريون خاملين في جبالهم وقد أغار ملوكهم بجيوشهم الجرارة في القرن الثالث عشر على السباسب والفدافد فاسسوا مملكة ضخمة عاصمتها نينوى

أساطير قديمة — لم نكد نعرف عن الاشوريين منذ أربعين سنة الا قصة ذكرها ديودورس الرومي من أهل جزيرة صقلية وقيل إن نينوس بنى مدينة نينوى وافتتح آسيا الصغرى جملة واستخضعت امرأته سميراميس بلاد مصر وكانت من الارباب فاستحالت بعد حمامة فخلفها ملوك خاملون

مدة ١٣٠٠ سنة . حوصر آخرهم في عاصمته واسمه سارداناپال فحرق نفسه ونساءه الى ما شاكل ذلك من الاقاصيص التي قل فيها الصدق واعوزته كلمة الحق

نينوى — هذا ما عرف عن مملكة اشور القديمة الى ان اكتشف المسيو بوتا قنصل فرنسا في الموصل سنة ١٨٤٢ اطلال قصر عظيم بالقرب من قرية خراساباد الحقيرة وقد غشيتها رمال صيرتها رابية . وهذه هي المرة الاولى التي شوهدت فيها الصناعة الاشورية بمظهرها ووجدت الثيران المجنحة بالاحجار سالمة ماثلة على باب القصر . وقد جيء بها الى باريز فجعلت في متحف اللوفر . ولقد استلفت بوتا بحفرياته أنظار أوربا فانفذت بعثات كثيرة وخصوصاً الانكليز . توفر بالاس وليارد على الحفر فيما كما أخيراً فاكتشفت قصور غير هذه . سلمت هذه الخرائب لجفاف الهواء في تلك الارجاء وبما غشيها من طبقات التراب . ثم انه عثر على جدران مغشاة بنقوش بارزة وصور وتماثيل وكتابات كثيرة فتسنى درس حال تلك العمارات في اماكنها وأخذت عنها صور المعاهد والنقوش . وأول ما اكتشف قصر خراساباد وهو الذي بناه الملك سرغون . وكان نينوى عاصمة ملوك اشور وهي قائمة على عدة هضاب يحيط بها سور ذو ابراج مربع الاضلاع ذرعه ٢٦٠ غلوة (نحو ٤٣ كيلو متراً) وقد بني خارج الجدران بيوت ممدود داخله تراب مهيل . أما دور المدينة فقد دثرت ولم يبق منها أثر ضئيل ولا رسم محيل بيد انه ظهرت عدة قصور شادها غير واحد من ملوك اشور . وقد ظلت نينوى عاصمة الملوك الى ان اوغل الماديون والكلدانيون في احشاء مملكة اشور ومزقوها شذر مذر .

كتابات القرمد — يتألف كل حرف في الكتابات الاشورية من مجموع علامات على شكل سهم اوزاوية ولذلك دعي هذا الخط بالخط المسماري وكانوا يستعملونه خنجراً مثلث النصل في آخره حد مثلث الاضلاع لرسم هذه العلامات يبلونه في صحيفة من الخزف الرطب ثم يدخلونه التنور فيصير صلداً لا ينمحي أثره . وقد كشفت في قصر اسوربانيال مكتبة تامة من الصفائح قام فيها القرمد مقام الورق

الخط المسماري — غالى جملة من رجال العلم في حل هذا الخط أعواماً كثيرة فتعذرت عليهم قراءته اذ كان لاول عهده يستعمل في كتابة خمس لغات متباينة وهي الاشورية والسوسية والمادية والكلدانية والارمنية . دع عنك الفارسية القديمة . وكانت تلك اللغات مجهولة فدامت اللغة التي تكلم عليها الآن مشوشة كل التشويش لاسباب عديدة أهمها تركبها من خطوط رمزية ينوب كل منها مناب كلمة مثل «شمس» «رب» «سمك» ومن خطوط ذات مقاطع . ولان لهذه اللغة نحو مائتي خط ذي مقاطع يتشاكل بعضها مع بعض ويسهل التباسها وإشكالها ولان الخط الواحد كثيراً ما ينوب عن كلمة وعن مقطع ولان الخط الواحد يقوم مقام مقاطع مختلفة بمعنى أن خطاً واحداً يقرأ «ايلو» تارة «وآن» طوراً وهو أصعب هذه الصور وأشكلها .

كان هذا الخط عسراً حتى على من يكتبونه . ونصف مالدينا من الآثار المسمارية هو كتب إرشادات من نحو ولغة وصور مما ساعد على حل النصف الآخر فتأتى الرجوع اليها في حل المشكلات على ما كان عليه شأن المتعلمين في مملكة أشور منذ ٢٥٠٠ سنة . وقد أفلح العلماء في حل الكتابات الاشورية

كما أفلحوا في حل الكتابات المصرية . فكانت لهم كتابة مستطيلة في لغات ثلاث أشورية ومادية وفارسية ونفعت الفارسية في حل غيرها

الشعب الاشوري — فطر الاشوريون على حب الصيد والحرب وان نقوشهم لتمثلهم مدججين بالاقواس والرماح راكبين صهوات الخيول بحيث ساغ أن يوصفوا بانهم كماة مجال وأبطال يحسنون الكر والفر . وان استوى في أعينهم رواحهم الى مناوشة ومغداهم في حرب زبون . ولقد عرفوا بالخيانة وسفك الدماء فوطئوا آسيا ستة قرون وخرجوا من جبالهم يغيرون على جيرانهم . ولطالما آبوا من غزواتهم وقد أسروا شعوباً باجمعها والظاهر أنهم يناشبون غيرهم القتال لمحض حب السفك والتدمير والنهب فانهم أشد خلق الله بأساً وأقساهم قلوباً

الملك — رأى الاشوريون لملكهم الخلافة عن الله في الارض جرياً على العادة الآسياوية فاطاعوه طاعة عمياء وبذلوا في حبه مهجهم . فكان الملك عندهم سيداً مطلقاً في حكمه رعاياه مهما اختلفت طبقاتهم يدعوهم الى حمل السلاح تحت لوائه فيقاتل بهم شعوب آسيا حتى اذا قفل منصوراً يصور مآثره على جدران قصره ذاكراً انتصاراته وما ناله من الغنائم وحرقه من المدن وذبحه من الاسرى وسلخه من احيائهم

الحملات — اليك بعض فقرات من نشرات الحروب قال اسورنازيرهابال عام ٨٨٢ : انني عمرت جداراً امام ابواب المدينة العظمى وسلخت جلود زعماء الثورة وغطيت هذا الجدار بجلودهم وقد دفن بعضهم احياء في اساس البناء وصلب فريق آخر وجعلوا على أوتاد في الحائط وسلخت جلود

كثيرين في معركتي وكسوت الحائط بها وجعت رؤوسهم على هيئة التيجان وضممت جثثهم الى أشكال الاكاليل

وكتب توكلا بالازار عام ٧٤٥ ما نصه : حبست الملك في عاصمته ورفعت ركوماً من الجثث أمام الابواب . هدمت مدنها كلها ودمرتها وأحرقتها وأقفرت البلاد وصيرتها آكاماً وقاعاً صفصفاً ينبق فيها بوم الخراب. وقال سنحاريب في القرن السابع : « انطلقت كالعاصفة المدمرة فسبحت السروج والاسلحة في ماء الاعداء كأنها في نهر والتراب مبلل وجمعت جثث جندهم كما تجمع الغنائم وبترت أطرافهم وقضقضت عظام من أخذتهم أحياء على نحو ما تقصف التبنة وقطعت أيديهم عقاباً لهم بما جنت أيديهم» هذا وقد صورت في احدى النقوش التي تمثل مدينة سوس وهي ترد الى عهد اسربانيبال وشوهدت فيها رؤوس المغلوبين يعذبهم الاشوريون وقد صلمت آذان بعضهم وسملت أعين آخرين ونتفت لحاهم . وهناك رجل يسلخ جلده وهو حي مما دل على ان أولئك الملوك كانوا يرتاحون الى ما يتم على أيديهم من الحرائق والمذابح والعذاب

خراب المملكة الاشورية — بدأت هذه الطريقة في الحكم في القرن الثالث عشر زمن الاستيلاء على بابل وذلك نحو عام ١٢٧٠ وظل الاشوريون منذ القرن التاسع يسرحون الحملات ويشنون الغارات حتى أخضعوا وان شئت فقل خربوا بلاد بابل وسورية وفلسطين ومصر. وكان المغلوبون يثورون في غضون تلك المدة بلا انقطاع والمذابح قائمة على ساق وقدم . ثم ضعفت قوى الاشوريين واتحد البابليون والماديون فقلبوا عرش مملكتهم نينوى عاصمة بلادهم سنة ٦٢٥ وهي المدينة التي سماها أنبياء بني اسرائيل « عرين

الاسد » ومدينة الدم والغنيمة فتيسر الاستيلاء عليها وخربت فلم تقم لها قائمة بعد . قال النبي ناحوم (خربت نينوى فمن يشفق عليها يا ترى؟)

مقاصد المؤلفين

الانتقاد في البشر خلة يجيدون فيه بحسب ما رزقوا من القوى العقلية واستبطنوا من الاسرار العلمية والمرء في الغالب لا يرى عيوب نفسه ويحتاج أن يدله دال معتدل عاقل عليها . وكذلك المؤلف وما تأليفه الا بضعة من نفسه وحسنة من حسناتها او سيئة من سيئاتها . ولكن مايسوغ للقرين أن يقوله لقرينه لايسوغ للعامي أن يقوله للخاصي ولا للغائب أن يعرضه على الحاضر

ومن الاسف ان سرعة الحكم فاشية في المشرق مستحكمة من نفوس اهله فترى احد المتعلمين من ابنائه اذا ألقي اليه كتاب ينظر فيه أسطراً ويحكم على المؤلف حكمه المسمط الذي لا يقبل النقض ولا الرد دون أن يعرف مقصده أو يقرأ كتابه برمته او مقدمته على الاقل . ولطالما كتب بعضهم تقريظاً على بعض الكتب بمجرد تلاوة صفحة من كتاب وسلق كاتبه بالسن حداد لجملة رآها فيه وربما فاته تدبر السياق والسباق وكان ما انتقده منبهاً عليه فصار الناقد ومقصد المؤلف على طرفي نقيض ينتقد عليه ما لو كان قرأ مقدمته على الاقل لما ألقى القول على عواهنه وحكم ابتساراً وافتئاتاً .

وبعد فان كتب العلم كاليضائع تعرض في السوق فتتناولها الايدي بحسب الرغبات فكما انه لا يحق لمن نزل السوق لابتياع ثوب ان يعترض